ايطاليا الجديدة

بين الانهيار والبعث الفاشي

كنا الى عهد قريب نحسب ايطاليا بلاد مجد قديم واطلال كريمة ومشاهد طبيعية رائعة ، لا دولة من دول العالم الكبار . ولكننا نرى فيها اليوم امة متحدة الكلمة فتيّة العزم مسموعة الرأي في مجامع الدول حتى لقد وصف احد الكتّاب احوال اوربا السياسية ومكانة موسوليني في حسمها او توجيهها بتكرير القول المأثور : « جميع الطرق تفضي الى روما » . ففي الاثني عشرة سنة الماضية شهد العالم في ايطاليا بعثاً قوميًّا قد لا يفوقهُ بعث قومي آخر في التاريخ وان ساواهُ في عصرنا بعث الامة التركية على ايدي مصطفى كمال. ولا بدّ لنا في تلخيص قصة هذا البعث من الارتداد الى سنة ١٩١٤

كانت ايطاليا حينئذٍ امة ملكية دستورية ، على رأسها ملك (هو ملكها الحالي فيكتور عمانوئيل الثالث) ولها برلمان دمقراطي على مثال البرلمان البريطاني . ولكن وحدة ايطاليا السياسية كانت قريبة العهد فلم يكن لها في سنة ١٩١٤ تقاليد يرعاها رجال السياسة او رجال الجيش ، وهذا بطبعهِ افضى الى تقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ولذلك كانت حياة ايطاليا العامة قبيل الحرب حياة يشوبها الفساد والارتكاب

فلما نشبت الحرب الكبرى وقعت ايطاليا في مأزق . فقد كانت مرتبطة بالنمسا بمعاهدة ولكن ساستها كانوا لا ينوون الانضمام الى النمسا الاّ اذا تبيّن لهم ان كفة النصر راجحة في جانبها . حتى اذا كانت كفة النصر راجحة في جانب النمسا فاذا تجني ايطاليا من ثمار النصر ؟ ان حلّ ما يمكن ان تتنازل عنهُ النمسا هو مقاطعة الترنتينو . حالة ان دول الحلفاء كانت تمنيها باكثر من ذلك اذا خاضت الحرب في صفوفهم ضد النمسا . وكذلك مضى ساسة ايطاليا يساومون هذا الفريق وذاك مدى شهور . ولكن الرأي العام في ايطاليا كان قد اخذ ينقلب ضد النمسا عدوة ايطاليا التاريخية . وفي اوائل سنة ١٩١٥ طالب احد المحررين في جريدة اشتراكية بان تخوض ايطاليا الحرب ضد النمسا ، فطرد هذا المحرر من الحزب الاشتراكي ومن ادارة الجريدة فانشأ جريدة سماها الـ « بوبولو ديطاليا » فاحرزت في الحال نجاحاً صحفيًّا عظيماً . وقد كان ذلك المحرر يدعى بنيتو موسوليني

وفي خلال هذا كان رجال الدولة قد اتخذوا قراراً حاسماً . ذلك ان وزير الخارجية البريطانية ، ادورد غراي ، كان قد وعدهم بضم التيرول النمسوية وشواطىء دلماتيا على البحر الادرياتيكي (ما عدا ميناء فيومي) الى ايطاليا اذا هي خاضت الحرب في صفوف الحلفاء . فقبلت ايطاليا ما عرض عليها فوقّعت معاهدة سرية في لندن في شهر ابريل (وتعرف باسم لندن ١٩١٥) وفي مايو شهرت

الحرب على النمسا . وقد ابلى بعض الايطاليين بلاءً حسناً في الحرب الكبرى واحرز بعضهم شهرة عالمية بشجاعتهم واقدامهم . وفي مقدمة هؤلاء الشاعر دانزيو الذي تعلّم الطيران ونظم في سلاح الطيران وحلّق بطائرته فوق فيينا والقى عليها بدلاً من القنابل ، نشرات حث فيها النمسويون على طلب الصلح . ولكن الجيش الايطالي خذل في كابورتو في اكتوبر سنة ١٩١٧ فتقدم الجيش النمسوي على أثره زاحفاً نحو البندقية ولكن لم تنقض سنة على ذلك حتى كانت المانيا قد عجزت عن المضي في الحرب فتراجع النمسويون وافتتى الايطاليون اثرهم ثم اشتبكوا معهم في معركة احرزوا فيها نصراً باهراً

فلما اجتمع مؤتمر الصلح في باريس كان ممثل ايطاليا فيه السنيور اورلندو فقال ان هذا النصر الباهر الذي احرزه الايطاليون جدير بالمكافأة وطلب ان يضاف مرفأ فيومي الى المقاطعات التي قطعت لايطاليا في معاهدة لندن سنة ١٩١٥ . ولكن الرئيس ولسن تصدى لهُ . قال : لتمنح ايطاليا التيرول والترنتينو وشاطىء دلماتيا حتى مدينة تريستا . اما فيومي فيناء سلافي ويجب ان يمنح ليوغوسلافيا (وكانت تعرف حينئذٍ باسم دولة الصرب والكروات والسلوفين) ولما تعذّر الاتفاق استدعي اورلندو من باريس فخرج من مؤتمر الصلح غاضباً

وكان في ايطاليا رجال قد وطّنوا العزم على ان ينالوا بالقوة ما عجزت حكومتهم الضعيفة عن نيله بالمفاوضة . وكان في مقدمة هؤلاء جبرائيل دانزيو الشاعر الجندي . كان شعره الملتهب واقدامه في خلال الحرب ، قد جعلاه الزعيم الطبيعي لجماعة الشبان الايطاليين . ففي سبتمبر سنة ١٩١٩ جمع كل طائرة استطاع ان يلقي يديه عليها وطار الى فيومي فطرد منها جيش الحلفاء المحتل واعلن فيومي مرفأً ايطالياً وحجتهُ في ذلك حجة الشاعر اذ قال : ان فيومي ايطالية بحق المشابهة بين مشاهد الطبيعة فيها ومشاهد الطبيعة في ايطاليا ! وجعل يلقي خطباً نارية على طريقة خطباء الرومان والاغريق القدماء . واعلن ان فيومي دويلة دمقراطية على مثال أثينا ، وجعل يجمع الجماهير كل يوم امام دارهِ فيطلّ عليهم من الشرفة ويسألهم : ما هي رغباتكم أيها المواطنون . وكان جنوده شباناً ثملين بمجد روما القديم ويحلمون بانشاء مستعمل مجيد على غرار المجد الذاهب . وكان بين انصاره رجال قد خاضوا غمار الحرب وخرجوا منها أبطالاً تلهبهم النزعة الوطنية فاقدم احدهم — كارل Keller — على القاء قنابل من البحر على وزارة جيولتي في روما . وكان هناك سفنٌ انفصلت عن الاسطول وانضمت الى دانزيو في فيومي وفي مقدمتها السفينة المعروفة باسم « دانتي » . فظلّت فيومي ثلاثة أشهر في قبضة دانزيو وصحبهِ « بلاداً خليقة بالابطال . وفي ليلة عيد الميلاد سنة ١٩١٩ ارسل جيوليتي الاسطول الايطالي الى فيومي — وهو يعلم ان الصحف تعطل اربعة أيام — فأخذها عنوةً وفرّ دانزيو واتباعهُ وانتهت على ذلك مغامرتهُ ولكن لما ذاعت الانباء اقفلت ايطاليا مسارحها وارتدت ملابس الحداد

ولكن حكومة جيولتي التي كانت على جانب كاف من القوة لطرد دانزيو من فيومي عجزت عن حفظ النظام في طول البلاد وعرضها . ذلك ان ايطاليا كانت متبرمة بنصر حربي لم يحقق لها جميع

رغائبها فلا هي فازت بجانب من مستعمرات المانيا ولا بشواطىء دلماتيا بل رأت على الضد من ذلك دولة جديدة كبيرة تنهض على شواطىء الادرياتيكي الشرقية تعرف باسم يوغوسلافيا. وكانت الامة تنتظر عودة الرخاء بعودة السلام فخاب فألها. فاشتدت الحركة الاشتراكية امتداد الناري الهشيم. وفي يناير سنة ١٩٢٠ اضرب عمال البريد والتلغراف وسكك الحديد. وفي الصيف بدأت مجالس العمال (السوفيت) تحتل المصانع. على ان الجماعة الاشتراكية لم تكن الجماعة الوحدة التي تقاوم الحكومة بل نشأت جماعة قليلة بدت في افق جيولتي السياسي اولاً كغيمة صغيرة لا تزيد عن مساحة الكف. ذلك ان بنيتو موسوليني كان قد انشأ في ميلان حزباً متواثاً مؤلفاً من ١٥٠ عضواً ودعاه «فاشو» والاسم مشتق من لفظ لاتيني «فاشيس» ومعناه حزمة العصي حول فأس كان يحملها اتباع الحكام (القناصل في روما) عند سيرهم في شوارع المدينة. فكان هذا الاسم رمزاً بديعاً للنهج الذي ينوي موسوليني ان ينهجه. كان موسوليني قد خاض غمار الحرب الكبرى وجرح في احدى معاركها. وكان يدرك الروح الذي حفز الجنود الايطاليين للاستبسال في ميادينها. فقد كان يهمهم انشاء دولة ايطالية جديدة تحتل في الحضارة الاوربية مكاناً في فريق الطليعة اكثر مما يهمهم قهر النمسا. وكان يفهم ان شجاعة الافراد واقدامهم، كشجاعة دانزيو واقدامه، يعجزان عن مقاومة حكومة منظمة. ولذلك كان الامل الوحيد في انشاء ايطاليا الجديدة معلقاً باتحاد الوطنيين حول زعيم قوي وهو ما يمثله الاسم الذي اختاره — عصي فردة محزومة حول فأس.

سقطت وزارة جيولتي في ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٠ وتلتها وزارة بونومي. فاحتفلت بذكرى الجندي الايطالي المجهول في ٤ نوفمبر سنة ١٩٢١ وبعد يومين اي في ٦ نوفمبر سنة ١٩٢١ عقد الفاشيون مؤتمراً في روما واصبح الحزب الفاشي حزباً سياسياً منظماً. وفي العاشر من الشهر نفسه اعلن الشيوعيون والاشتراكيون اضراباً عاماً احتجاجاً على وجود الفاشيين في روما فتلا ذلك اضطرابات خطيرة قتل فيها خمسة وجرح بضع مئات. وفي اواخر الشهر افلس بنك الخصم فوجه اللوم الى الحكومة لعجزها عن منع هذه الكارثة المالية واضطر بونومي ان يستقيل في ٢ فبراير سنة ١٩٢٢ لما هجره بعض مؤيديه وانضموا الى المعارضة.

فلما استقالت وزارة بونومي تعذر تعيين خلف له حتى يعرف اي حزب او اي فريق يفوز بتأييد الفاشيين. وكذلك انقضت نحو ثلاثة اسابيع قبل ان تألفت وزارة برآسة السنيور لوجي فاكتا. وهو رجل عرف بالنزاهة والوطنية ولكنه لم يشتهر بالحزم في الملمات. وادرك موسوليني ان مفتاح الحكم اصبح بيده او كاد، فلبث ينتظر تطور الاحوال وهو يُعِدّ معداته لليوم العصيب. فلما استفحل امر الاضرابات التي اعلنها الشيوعيون والاشتراكيون في مختلف النواحي احتدم النزاع بينهم من جهة وبين الفاشيين من جهة اخرى. فلما اعلن حزب العمال في جميع مرافىء ايطاليا في ١٨ مارس سنة ١٩٢٢ — وكانت الحكومة ميالة الى تأييد مطالب العمال الحر — وقف لهم الفاشيون

بالمرصاد وفازوا عليهم فعادوا العمل في المرافىء الى حالته السوية . وفي ٢٥ مايو اعلن اضراب عام في روما وفي يوليو نشر وزير المالية حساب السنة المالية السابقة فاذا فيه عجز في الخزينة يقدر ٤٥٠٠ مليون ليرا وقال الخبراء ان العجز يبلغ ٦٥٠٠ مليون ليرا . فأصيب الرأي العام بذعر عظيم وتجددت الاضطرابات وقبض الفاشيُّون على ناصية الحال في مناطق مختلفة ففرقوا جماعات الاشتراكيين والشيوعيين بالقوة . ولكنَّ النواب كانوا في شغل عن كل هذا بالمناورات الحزبية . وفي اوائل اكتوبر ١٩٢٢ أعلن اتحاد العمال اضراباً عامًّا في ايطاليا فوقف العمل في معظم المصانع وأضرب عمال السكك الحديد . ولكن الفاشيين أعلنوا تعبئة عامة وتولوا النهوض بالخدمات الضرورية مثل المواصلات ونقل الطعام وأذاعوا بياناً وجهوهُ الى العمال حثوهم فيه ان يخلعوا عن اكتافهم نير المشتغلين بالسياسة وانذروا الحكومة بانهم يمنحونها ٤٨ ساعة لتثبت كفايتها في القبض على ناصية الحال فاذا عجزت تولوا هم الامر . قالوا : « وعند انتهاء هذه المدة تكون الفاشية حرة في ان تحلَّ محل الدولة ». ولم تنقضِ خمسة أيام حتى كان الاضراب قد خاب في تحقيق غرضه وهو نشر الفوضى في البلاد . واصطدم الفاشيون في خلال ذلك بالشيوعيين في مدن مختلفة اهمها مدينة ميلان حيث اسقطوا مجلسها البلدي الاشتراكي الشيوعي . وكانت وزارة فاكتا قد عجزت عن معالجة الحال فطلب رئيس الوزراء الى الملك فكتور عمانوئيل اعلان الاحكام العرفية ولكن الملك ادرك ان اعلانها يفضي الى حرب اهلية لان الفاشيين كانوا قد عبأوا صفوفهم وبدأوا يزحفون على روما فرفض . وطلب الى موسوليني ان يشترك في الوزارة فأبى فاستقالت وزارة فاكتا ودخل موسوليني روما على رأس الفاشيين لتقلد أزمة الحكم . وما لبث ان اطلَّ من شرفة دار الرآسة على الجمهور وخاطبهم قائلاً : سوف يكون لكم بعد اليوم حكومة لا وزارة . وخاطب الملك مرتدياً قميصهُ الاسود : عفواً يا مولاي اذا سمعت اليكم بهذه الملابس ولكني احمل اليكم « ايطاليا المنتصرة » . وكان ذلك في ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢.

ولما تولى موسوليني الحكم قبض على ازمته بيد من حديد ، فسار حذراً في البدء لئلاَّ يؤلب عليهِ الاحزاب المعارضة قبل ان ترسخ قدمهُ ولكن حذرهُ لم يحل من الجرأة لانهُ في اليوم الاول الذي تقدَّم فيهِ الى مجلس النوَّاب خطب فيهِ قائلاً « انيَّ مرجع الحكم في هل تحتفظون بمقاعدكم شهرين او سنتين» . فكان لكلامهِ وقع عظيم في نفوس النواب فأولاهُ المجلس ثقتهُ ، واغتبطت الامة بهذا الانقلاب اذ بدا لها انَّ هنا رجلاً يستطيع ان ينقذها من الشيوعية . فلما اغتيل اثنان وعشرون من الشيوعيون في دسمبر سنة ١٩٢٢ هنأ وكيل وزارة الداخلية المغتالين وعفا عنهم القضاة على ان موسوليني جسَّم الخطر الشيوعي ليعظم في نظر الامة جهد الفاشيين في انقاذها منهُ . ولكنهُ لم يكن رجلاً يكتفي بالتنكيل بخصومهِ ، بل كان يرمي الى ان يبعث في جسم الامة الهرم شرارة الحياة والنشاط ونظر بعين بصيرتهِ وخياله الى يوم ينشىء فيهِ ايطاليا الجديدة على

مثال جديد بين الامم ، ويبني عليها من اسباب القوة المادية والمعنوية ما يحلها في مجامع الدول المحل اللائق بمجدها القديم وجهدها الحديث . بيد انهُ لم يبغ ان يسلك الى غرضهِ هذا سبيل الثورة بل سبيل التحوُّل الدستوري ، وقد كان لموقف الملك فكتور اثانث لما رفض اعلان الاحكام العرفية أثر في خطة موسوليني هذه ، فبقيت ايطاليا مملكة دستورية واحتفظ بمجلس النواب والشيوخ وادرجت سبل التحوُّل الى النظام الفاشيُّ في اربعة قوانين اصدرها البرلمان

اما الاول فشمل قانون الانتخاب وقد صدر في سنة ١٩٢٣ ثم عدل في سنة ١٩٢٨ وبمقتضاه تعتبر ايطاليا بأسرها دائرة انتخابية واحدة . فيضع المجلس الفاشي الاعلى قائمة تحتوي على اربعمائة اسم من اسماء تعرض عليهِ . ثم تذاع هذه القائمة والناخبين ان يقبلوها أو يرفضوها جملة واحدة . فاذا رفضها الناخبون وهو غير محتمل ، توضع قائمة جديدة وتعرض على الناخبين . وقد ثبت من الانتخابات التي جرت في سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٤ ان ٩٠ في المائة من الناخبين في الانتخاب الاول و ٩٦ منهم في الانتخاب الثاني وافقوا على القائمة الاولى التي عرضها المجلس الفاشي الاعلى عليهم . وعلى ذلك يمكننا ان نقول انهُ دام النظام الفاشي قائماً في ايطاليا فالمجلس الفاشيُّ الاعلى يعين بالفعل اعضاء مجلس النواب . ومجلس الشيوخ مؤلف من امراء البيت المالك واعضاء آخرين يعينهم الملك لمدى الحياة من رجال تخطوا سن الاربعين وامتازوا في ناحية من نواحي الخدمة العامة . وليس ثمة حدٌّ لعدد الشيوخ فتستطيع الحكومة ان تزيد عددهم اذا شاءت ومتى شاءت ولكن الضرورة لم تقتضِ هذه الزيادة حتى الآن

اما المجلس الفاشي الاعلى فمؤلف (اولاً) من اربعة اعضاء يقودون فيهِ مدى الحياة وهم القواد الفاشيون الاربعة الذين تقدموا الصفوف في الزحف على روما في اكتوبر سنة ١٩٢٢ (ثانياً) من رجال يشغلون مناصب كبيرة في الدولة مثل بعض الوزراء وسكرتير الحزب الفاشي ورئيس الميليشا الفاشية ورؤساء الاتحادات القومية و(ثالثاً) رجال يعينهم رئيس الدولة جزاء لهم على خدمات عظيمة أدُّوها للدولة ومدتهم ثلاث سنوات قابلة للتجديد . وليس ثمة حدٌّ لعدد هذه الطائفة من الاعضاء

وفي القانون الثاني حدد عمل رئيس الوزارة . فهو مسؤول للملك ولا يمكن ان يحمَّل على الاستقالة اذا افترع مجلس النواب عدم الثقة بهِ او بوزارتهِ كما يقع في بريطانيا . بل لا يجوز ان يقترحَ اقتراحٌ ما في المجلس من دون رضائهِ . فاذا رفض المجلس أحد مشروعاتهِ حقَّ لهُ ان يعيد هذا المشروع الى المجلس بعد ثلاثة أشهر وعندئذٍ يقترع عليهِ مرَّة

والقانون الثالث منح الوزارة الحقَّ ان تحكم بمراسيم . وهذه المراسيم لها قوة القانون مدة ثلاث سنوات بعد صدورها سواء اوافق عليها البرلمان او لم يوافق . اما القانون الرابع فهو القانون الذي وضع اساساً جديداً لحياة ايطاليا الاقتصادية وانشاء ما يعرف «بالدولة النقابية» او «الدولة المندمجة» هو موضوع بحث تالٍ